



مصر (الشعب) ومصر (النخبة) طلعت رضوان

٩ ديسمبر ٢٠١٤

منذ عدة سنوات كتبتُ في دراساتي وفي كُتبي أنّ مصر (منكوبة) بمن أطلقتُ الثقافة المصرية السائدة عليهم (نخبة) الذين يُسيطرُون على الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي ، ويتصدرون الإعلام (الرئى والصحف) ورغم ذلك لم يُحدثوا أى تراكم كفي حقيقي لصالح الوطن ، لذلك ظلتُ مصر تسير (بقوة الدفع الذاتي) ولعلّ أبرز مثال على ذلك فشل أعظم انتفاضتَيْن في التاريخ الحديث (انتفاضة يناير 77 وانتفاضة يناير 2011) فى الأولى امتصّها السادات بتراجعه (الوقتى) عن زيادة الأسعار، وبعد شهرٍ نفذَ نظامه تعليمات صندوق النقد الدولي بالحرف تحت مُسمى (تحريك الأسعار) وفى الثانية امتصّ مجلس طنطاوى/ عنان الانتفاضة بقرار تنحى مبارك ، وهو قرار باطل ، لأنّ الدستور لم ينص على تولية المجلس العسكرى لشئون حكم البلاد ، إنما نصّ على : رئيس المحكمة الدستورية أو رئيس مجلس الشعب ، وبالتالي طبّق المجلس العسكرى وعد بالفور (من لا يملك أعطى لمن لا يستحق) وهكذا راحت دماء الآلاف من شبابنا بلا تحقيق مطالبهم المشروعة، وكان على رأسها (مصر دولة ليبرالية) وتحقيق العدالة الاجتماعية، ومحاكمة مبارك ونظامه محاكمة سياسية ، وهى مطالب لم يتحقّق منها أى شىء ، وانتهى المشهد كما رسمه وخطط له المجلس العسكرى بالأفراج عن مبارك وعن عصابته. وعادتُ (ريما لعادتها القديمة) كما يقول شعبنا الأُمى فى أهزيجه البديعة. ويذهب ظنى أنّ السبب فى فشل الانتفاضتَيْن الكبيرتَيْن ، يعود إلى غياب (نخبة وطنية) تقود الجماهير لتحقيق مطالبها ، سواء من أحزاب أو جمعيات حقوقية ، بل إنّ تلك (النخبة السائدة) تسببتُ فى فشل انتفاضة يناير 2011 ، عندما أيدتُ فض الاعتصام مساء 11 فبراير. وعندما طالب أصحاب العقول الحرة (المغضوب عليهم والضالين من وجهة نظر المنظومة الرسمية والسائدة) بعدم فض الاعتصام ، وأنّ إنهاء الاعتصام نهاية ل (الثورة) فكان رد (النخبة الرسمية) ردًا عاطفيًا سانجًا ((عاوزين إيه بعد ما انزاح الكابوس اللى اسمه مبارك!)) وهذا الرد سمعته بنفسى فى ميدان التحرير فى ذلك المساء الأسود .

ولكن هل (النخبة الرسمية) التى تتصدّر المشهد فى الواقع المصرى ، هى المسئولة وحدها عن غياب أى تراكم كفي لصالح الوطن؟ يذهب ظنى أنّ المُتعلّمين الكبار (من شعراء وروائيين وباحثين وإعلاميين) المحسوبين على الثقافة المصرية السائدة ، هم (توأم النخبة الرسمية الفاسدة) لأنّ هؤلاء المُتعلّمين (مع وجود بعض الاستثناءات) ساهموا فى تضليل شعبنا ولم يُدافعوا عن خصائصه الثقافية القومية ، بل إنهم مشوا وراء البكباشى عبد الناصر، وردّدوا أكاذيبه التى فضحها الواقع مثل أكذوبة (القومية العربية) لضرب (القومية المصرية) وأكذوبة (الوحدة العربية) لضرب خصوصية أى شعب من شعوب المنطقة. وأطلق الصحابى الأول (هيكل) لنبنى العروبة (عبد الناصر) مدفعيته (من منبر صحيفة الأهرام) ليهدم خصوصية أى شعب ، فوجّه سهامه المسمومة فى مقولته الباطلة والفاصلة ((مصر لا شىء بدون العرب.. والعرب لا شىء بدون مصر)) أى إلغاء أى امكانية ل (الاعتماد على النفس) كما فعلتُ كل الشعوب العظيمة والأنظمة المُحترمة. وعندما ذهب هيكل إلى قناة الجزيرة وأدلى فيها بعدة أحاديث قال فى شهر يونيو 2009 ((يستحيل الدفاع عن الأمن المصرى بدون حزام قومى عربى)) فنال هذا الكلام إعجاب القناة التى تستضيفه ، فأصرتُ على إعاءة هذه الفقرة (بالذات) ضمن فواصلها الإعلانية لعدة أيام . فما مدى صدق هذا الكلام؟ وهل هو اكتشاف جديد ؟ إنّ بداية التوجه العربى كانت منذ يناير 53 باعتراف ضابط المخابرات المصرى (فتحي الديب) المولع بالعروبة والناصرية وذلك فى كتابه (عبد الناصر وتحرير المشرق العربى- مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية- عام 2000- ص12، 30) أى أنّ ما ذكره هيكل ليس اكتشافًا جديدًا ، وإنما هو يبيع بضاعة قديمة حفظتها شعوب المنطقة بفضل الإعلام الموجّه وبفضل الكتاب المدرسى. إذن هى رسالة لتكريس التوجه الأيديولوجى العربى المعادى لأية خصوصية ، سواء لأية دولة عربية أو لمصر، حتى فيما يتعلق بقدرة مصر فى الدفاع عن حدودها الوطنية. يؤكد ذلك أنّ ما ذكره هيكل فى عام 2009 هو تكرار لما كتبه عام 73 إذ كتب ((إنّ طاقة مصر وحدها لا تستطيع إحراز النصر المُرتجى فى الصراع الراهن فى أزمة المشرق الأوسط)) (أهرام 7/6/73) أى قبل حرب أكتوبر بثلاثة شهور. ولم يكتفِ هيكل بإنكاره قوة مصر الذاتية وإنما وصفها فى نفس المقال بأنها ((شظية اسمها مصر)) ونظرًا لإيمانه ب (الوحدة العربية) رغم فشل الوحدة المصرية السورية أضاف ((لا مستقبل للكيانات الشظايا. شظية اسمها السعودية. وشظية اسمها ليبيا.. الخ)) وفى

الأسبوع التالي كرّر نفسه ولكن بمزيد من الهدم لمبدأ الاعتماد على القوة الذاتية لأية دولة فذكر لو أنّ ((كل بلد عربي وجد الوسيلة لتنمية مستقلة، فعنى ذلك أننا سندخل في عصر من المنافسة الطاحنة بين الضعفاء)) ونتيجة ذلك في رأى هيكّل الذى تصفه الثقافة السائدة البائسة والمنحطة وكل تلامذته اليؤساء ب (الكاتب الكبير) النتيجة كما أضاف هو ((شظايا تصطدم مع الشظايا. فتات يأكل الفتات)) ولشدة ولعه باللعب بالألفاظ (على طريقة د. جمال حمدان) أضاف ((أننا إذا لم ننجح فى التنمية المستقلة وقعنا فى الخطر، وإذا نجحنا فى التنمية المستقلة وقعنا فى الأخطر)) فهل ينكر أى عقل حر أنّ هذا الكلام يصب فى مصلحة الرأسمالية العالمية؟ لقد أضحكنى هيكّل عندما سمعت أحاديثه فى قناة الجزيرة ، وربطتها بمقالاته فى (أهرامه) فهو إذ يرى فى عام 2009 أنّ مصر لا شىء بدون العرب ، كتب فى عام 73 أنّ ((الأمّة العربية أمامها فترة محدودة - ثلاث سنوات أو خمس على أكثر تقدير- فإذا لم تستطع خلالها أن تبدأ بنوع من العمل العربى وتختم بنوع من الوحدة العربية ، فإنّ هذه الأمّة سوف تفقد مكانها على الخريطة السياسية للعالم الجديد . بل أكاد أقول إنها مُهدّدة بفقد مكانها على الخريطة الجغرافية لهذا العالم أيضًا. وسوف تكون عاجزة عن مواجهة التحدى الإسرائيلى القائم فعلا)) (أهرام 73/7/13) فإذا أخذنا الحد الأقصى الذى حدّده هيكّل لفقدان الأمّة العربية لمكانها (الأدق لغويًا لمكانتها) فإنّ المدة تنتهى فى عام 78، فما حالته العقلية فى عام 2009 وهو يبيع بضاعته القديمة لقناة الجزيرة ، عندما أصرّ على أهمية العرب لمصر لحماية أمنها القومى؟ بعد أن فقدوا مكانتهم وفق كلامه. وما حالته العقلية بعد الذى حدث فى اليمن وسوريا والعراق وليبيا؟ خاصة بعد يناير 2011؟

وبسبب العروبة التى يرى هيكّل (ومعه الناصريون والماركسيون وكل العروبيين) أنها الحامية لمصر، تمّ قتل جنودنا وضباطنا المصريين (وكذلك قتل أبناء الشعب اليمنى) فى (بالوعة) اليمن حسب وصفه (أهرام 73/6/1) وأنّ إيمان عبد الناصر بالعروبة جعله يستهين بحديث الحبيب بورقيبة الذى ذكر له أنّ الأمير فيصل قال ((إذا لم ينسحب الجيش المصرى من اليمن ، فنحن على استعداد لأن نجعل منها مقبرة كبيرة له)) (نقلا عن هيكّل فى كتابه الانفجار- ص62) وبالطبع فإنّ المقبرة كانت للشرفاء من شعبنا الذين قُتلوا فى اليمن ، ورفض عبد الناصر عودتهم لمصر لدفنهم فى وطنهم. وكذلك الذين قُتلوا فى عام 56، 67 وليست المقبرة لعبد الناصر الذى استمر حتى يُجهّز لمقبرة الجيش المصرى فى بؤونة/ يونيو 67. وبسبب العروبة تمّ تبيد مصر على سوريا واليمن والجزائر إلخ (لمن يود التأكّد من ذلك عليه الرجوع لكتاب فتحي الديب- مصدر سابق- أكثر من صفحة)

وهيكّل 2009 يتجاهل ما كتبه على لسان عبد الناصر الذى قال يوم 65/8/29 أنّ العرب يُتاجرون بالشعارات ((وبالتالى فإنّ ج.ع.م (أى مصر) ستجد نفسها مضطّرة إلى الانسحاب من مؤتمرات القمة لتحلّ مسئوليتها التاريخية وحدها)) وعن فلسطين قال عبد الناصر ((نحن جميعًا لا نملك خطة لتحرير فلسطين ولا نملك الوسائل لتحقيق ذلك)) (هيكّل- الانفجار- ص207، 208) وهيكّل يتجاهل أنه أثناء العدوان الثلاثى على مصر فإنّ الطائرات البريطانية كانت تضرب بور سعيد من مطار الحبانة بالعراق (صحيفة الشعب 56/11/25) ويتجاهل أنّ نبي العروبة (عبد الناصر) قال لإيدن ((إذا اعتديتم علينا سنستعين بالاتحاد السوفيتى)) (صحيفة الشعب 56/11/29) فلماذا لم يقل سنستعين بالعرب؟ هل لأنّ نبي العروبة أكثر واقعية من الصحابى الأول؟ وهيكّل 2009 يتجاهل ما كتبه هيكّل 98 إذ ذكر أنّ الجيوش العربية سلّمت قيادتها للجنرال جلوب الانجليزى . وأنّ بعض الجيوش العربية تخلّت عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب وغيرها فى شهرى نوفمبر وديسمبر 48 (هيكّل- العروش والجيوش- دار الشروق- عام 98- ص445) وهيكّل الذى يُرّوج لمقولة أنّ مصر بدون العرب مجرد (شظية) هو الذى كتب ((إنّ الصراع العربى الإسرائيلى فى جوهره صراع بين (الكم) العربى و(الكيف) الإسرائيلى ، قد يكون العرب مائة مليون ولكنهم بعيدون عن روح العصر ولهذا لا يلحقون به)) (أهرام 73/6/8) لذا لم تكن مفاجأة أنّ يقوم الطيران الإسرائيلى يوم 81/6/7 بتدمير المفاعل العراقى (رغم محطة الإنذار المبكر فى الأراضى السعودية) ويقوم فى العام التالى (يونيو 82) بغزو لبنان . فإذا كانت الميديا العروبية تُرّوج لمقولة اعتماد مصر على العرب ، يكون السؤال المشروع: ماذا قدم العرب للعرب؟ فعندما غزا جيش صدام دولة الكويت فإنّ الكويت استعانت بأميركا والغرب لتحرير أراضيتها ولم تستعن بالعرب . وذكر فتحي الديب أنّ ((قاعدة الظهران الأمريكية التى أقامتها أميركا بالسعودية كانت بديلا مأمونا وبعمق المشرق العربى)) (المصدر السابق- ص181) ولكنه لم يذكر الهدف من إقامة هذه القاعدة العسكرية الأمريكية على الأراضى السعودية ، وأنّ إقامتها ضد من؟ وبعتراف هيكّل فإنّ السعودية بها 1600 خبير عسكري بريطانى وأمريكى (الانفجار- ص241) وهيكّل الذى كتب كثيرًا عن (الاستعمار الأمريكى) وعن (الكيان الصهيونى) فى وصفه لإسرائيل ، يتحدث فى قناة الجزيرة التابعة لقطر، ويعلم بوجود أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى الخليج (العربى) على أرض قطر. وعلى أرضها أيضًا المكتب التجارى الإسرائيلى بالدوحة. فكيف تصوّر أنّ يُصدقه أحد غير البلهاء حسنى النية؟ أم أنه يعتمد على المُشاهدين العروبيين ودراويش الناصرية وحدهم؟

ويتجاهل هيكّل أنّ نبي العروبة (عبد الناصر) هو مهندس هزيمة بؤونة/ يونيو 67. ولم تكن أكذوبة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية إلاّ (الشماعة) التى علّق عليها توريط مصر فى هذه الكارثة التى يصعب محو آثارها من نفوس شعبنا ، والتى تبدو أغرب من الأساطير ومن خيالات مؤلفى ألف ليلة وليلة، خاصة وأنّ التقارير المصرية أكدت لعبد الناصر أنه لا توجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية (الفريق أول محمد فوزى فى كتابه حرب السنوات الثلاث-

67-70-71، 72 وكتاب مذكرات الجمسى حرب أكتوبر73- ص19، 38، 39، 40) فكانت النتيجة كارثة الهزيمة التي أطلق عليها الصحابي الأول اسم الدلع (نكسة) رغم أنّ إسرائيل دمّرت كل الطائرات والممرات المصرية في مدة قدرها هيكل نفسه ب ((ثلاث ساعات ونصف)) (هيكل الانفجار- ص710) وإسرائيل التي كتب هيكل أنه ((لا مستقبل لها في المنطقه)) (أهرام 73/6/8) والتي قرّر العرب في بيان القيادة السياسية الموحدة في شهر مايو65 أنّ ((الهدف العربى القومى هو القضاء على إسرائيل)) (فتحى الديب- مصدر سابق- ص688) وإسرائيل (المزعومة) فى الميديا العروبية/الناصرية ضربت 11 قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر (هيكل- الانفجار- ص713) وتحت شعار (القومية العربية) أتاح نبي العروبة لإسرائيل ، ليس إحتلال سيناء فقط ، وإنما القدس والضفة الغربية وغزة والجولان السورية. والأكثر فداحة ما ذكره ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى الأسبق من أنّ ((دولة عربية طلبت كمية من الأسلحة لمواجهة السوفيت ، وأنا وافقنا بشرط أنّ لا تستخدم أسلحتنا ضد إسرائيل)) (هيكل- الانفجار- ص241، 242) وهيكل الذى نقل هذا الحديث لم يُعلق عليه بكلمة واحدة.

يُفرّق هيكل والميديا العروبية/الناصرية بين أنظمة (رجعية) وأخرى (تقدمية) وأنّ الأمل فى الاعتماد على الأخيرة (الانفجار- 66) وليس لدى تعليق أبلغ من الواقعة التي ذكرها المؤرخ المرحوم د. رؤوف عباس الذى ترجم كتابًا عن جريمة أميركا ضد الشعب اليابانى فى هيروشيما وناجازاكي فى أغسطس 1945. كان الكتاب بعنوان (اليوميات والشهادات) طبع د. رؤوف الكتاب على نفقته الخاصة وكان ذلك فى عام 75. تعاقب د. رؤوف مع الأهرام لتوزيعه فقال له صلاح الغمراوى مدير التوزيع آنذاك (إنّ الوقت غير مناسب لصدور الكتاب) طاف د. رؤوف على مكاتب القاهرة يعرض عليها توزيع الكتاب ، فاكتشف أنّ هناك تعليمات شفوية من المباحث بعدم طرح الكتاب للبيع . دلّه صديق على مكتبة الخانجي التي قبلت الكتاب لتصديره إلى دول (جبهة الرفض : العراق، سوريا، ليبيا والجزائر) كانت القاعدة المعمول بها تقتضى إرسال عدة نسخ إلى البلد المعنى للحصول على موافقة الرقابة ، فكانت النتيجة أنّ ((الرقابة فى البلاد الأربعة رفضت السماح بدخول الكتاب)) فكان تعليق د. رؤوف على هذه الكوميديا السوداء ((اكتشفت زيف تشدق النظم العربية (التقدمية) بشعارات معاداة الامبريالية (الأمريكية) ومدى ارتباط أجهزتها المعنية بالولايات المتحدة الأمريكية)) (مشيناها خطي- كتاب الهلال- ديسمبر2004- من ص183- 186) فهل هناك تضليل إعلامى أكثر من ذلك؟ وهل صحيح أنّ مصر- أو أية دولة أخرى- لا تستطيع أنّ تعتمد على نفسها أو تحمي حدودها كما قال الصحابي الأول (هيكل)؟ ألا يؤدي هذا الكلام إلى كسر القوة الذاتية لأى شعب؟ وبالتالي يصب فى صالح الرأسمال العالمى؟ وألا يعنى أنّ شعار العروبة الذى باركته بريطانيا وأيدته أميركا هو ضد العرب مثلما هو ضد مصر؟ وصدق الشاعر الكبير نزار قباني فى قوله الحكيم (سقط الفكر فى النفاق السياسى/ وصار الأديب كالبهلوان/ تستبد الأحران بى/ فأنادى/ أه يا مصر من بنى قحطان))

تعمّدت أنّ أبدأ ب (هيكل) بصفته أحد (كبار المتعلمين) المحسوبين على الثقافة المصرية السائدة وأكتفى بنموذج آخر هو د. جمال حمدان (أيقونة) العروبيين والناصريين والماركسيين، رغم مساهمته فى التضليل ، فهو نظرًا لولعه باللعب بالألفاظ (وقلّده كثيرون) قال جملته غير العلمية أنّ مصر ((فرعونية بالجد ولكنها عربية بالأب)) وأنّ قدرنا ((هو القومية العربية)) (شخصية مصر- أكثر من صفحة فى أكثر من طبعة) أى أنه مشى وراء نبي العروبة (عبد الناصر) فى مسألة ((قدرنا هو القومية العربية)) ويرى حمدان أنّ الفرس واليونان والرومان الخ غزاة ومستعمرون ومحتلون ، أما العرب فشئ آخر تمامًا فكتب (... والحقيقة أنّ الدولة العربية كانت (إمبراطورية تحررية) بكل معنى الكلمة فهى التي حرّرت كل هذه المناطق من ريق الاستعمار الرومانى أو الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزاز المادى)) وهنا يجب ملاحظة استخدامه للفظ (وثنى) وهو لفظ غير علمى ومن بضاعة الأصوليين فى كل دين ، وملاحظة تضليله فى تعبير (الابتزاز المادى) وكأنّ الغزاة العرب لم ينهبوا ثروات الشعوب تحت مُسمى (الجزية) ومُسمى (الخراج) إلى آخر المُسميات والتصرفات التي وردت فى (أمهات الكتب) التي أرخنت للتاريخ العربى/الإسلامى الدموى ، ويكفى قراءة كتاب (فتوح مصر وأخبارها) تأليف ابن عبد الحكم القرشى الذى أورد نص كلام عمرو بن العاص عندما عزله عثمان عن جمع (الجزية) فقال له ((أنا إذن كمالك البقرة من قرنيها وغيرى يحلبها)) (مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر- عام 74- ص121) وتلك الجملة هى المفتاح لفهم شخصية الغازى عمرو بن العاص ومن معه من الغزاة العرب ، وهذا مجرد نموذج واحد من آلاف النماذج عن النهب الاستعمارى العربى ، فهل جمال حمدان يستحق الأوصاف التي أطلقها عليه العروبيون والناصريون والماركسيون مثل : المؤرخ ، العالم ، المفكر إلخ ؟ رغم أنه كتب فى تبريره للاستعمار العربى ((واضح إذن أنّ أخوة الدين كان يُقابلها أخوة الأقاليم... إنّ علينا ابتداءً أنّ نسلّم - موضوعيًا - بأنّ هناك حوافز وقوى ميتافيزيقية لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكمن خلف هذه الدينامية المُتفجرة والحيوية الدافقة. ولا شك أنّ جذوة الحماس الدينى المُتقدّة هى التي ألهمت خيال المؤمنين حتى تحولت بهم إلى شعلة ملتهبة وتحولوا هم إلى مشعل مضيء)) وردّد ما يقوله الأصوليون الإسلاميون أنّ السلطة فى الإسلام أصبحت (دولة بين الجميع) فلم ((يلبث بعد قليل أنّ مركز الحكم الإسلامى ترك النواة النووية فى جزيرة العرب التي أصبحت فى النهاية هى جزيرة الإسلام بقدر ما أصبحت دار الإسلام دار العرب الكبرى)) (د. جمال حمدان- استراتيجىة الاستعمار والتحرر- دار الشروق- عام 83- ص26، 27) ألا يتطابق هذا الكلام مع ما قاله الأصوليون المُعادون للانتماء الوطنى أمثال الأفغانى ورشيد رضا وحسن

البنا وسيد قطب وشكري مصطفى إلخ؟ فكيف ولماذا صنّفته الثقافة السائدة بالصفات التي لا يستحقها؟ وهل من الممكن لشعبنا المصري أن يُحقق أية تنمية مستقلة وأن يُحقق أى تقدم وأى تحرر، مع وجود أمثال هؤلاء (المُتعلّمين الكبار) من نوعية هيكل وحمدان؟

وهكذا تتضح معالم الكارثة التي تعيشها (مصر المنكوبة بمتعلميها) لأنّ النموذجين (هيكل وحمدان) وغيرهما كثيرين أثاروا على عقلية (النخبة الرسمية) وأصحاب تلك (النخبة) هم الذين يتربّعون على عرش الميديا. وبينما شعبنا (خاصة الأميون) ينتفضون ضد كل أشكال القهر والاستعمار العربي/ الأمريكي لمصر، تنقض عليهم (النخبة) لتُفرغ انتفاضاتهم من محتواها الوطني والتقدمي، لصالح الأمريكان والعرب، وشعارهم (تثبيت الواقع المتردى) طالما هم ينعمون بالثراء وصدارة المشهد الاجتماعى والثقافى والسياسى، وبذلك تكون مصر (الشعب) شىء ومصر (النخبة) شىء آخر هو النقيض لطموحات شعبنا.

<http://www.wataninet.com/%D8%B1%D8%A3%D9%89-%D8%AD%D8%B1/%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B9%D8%A8-%D9%88%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%AE%D8%A8%D8%A9/226862/>